اصل اللغة

او كيف ابتدأ الانسان بالنطق

اشتغل الفلاسفة في هذه المسئلة طويلاً ولم يهتدوا الى حلّها حتى يومنا هذا لشدّة خفائها وبعد غايتها مما ابقاهُ السلف وتداولهُ الخلف من اساطيرهم ونواميسهم. فقبل ابتداء الانسان بتسطير التواريخ ابتدأ بكتابة الحروف وقبل ابتدائهِ بكتابة الحروف ابتدأ برسم الصور ونقش ما يشير الى الحوادث وقبل ابتدائهِ بالصور والنقوش ابتدأ بقص الاخبار والمشافهة بالحوادث وقبل ذلك ابتدأ بالنطق والتعبير عمّا في ذهنهِ بالفاظ. وقد سدل الخفاء برقعهُ على هذه المسائل كلها حتى لم يبقَ ما يخبر باصل التاريخ[1] خبر اليقين فلا بدع ان اختفى اصل اللغة وعفت الايام رسمهُ

ولما كانت اللغة كثيرة التراكيب بديعة الاساليب تحار الافكار في اتساع اطرافها وبعد اكنافها عجز الناس عن ادراك كنهها وقنطوا من معرفة اصلها فارتضوا عقولهم زماناً بما اوقفها عن البحث والتحليل وقالوا ان الباري خلق اللغة ثم لقّنها الانسان فتلقّنها كما يتلقّن الطفل الكلام من فم والدهِ. وقال البراهمة ان اللغة الاهة ونظموا في مدحها الاشعار وزعموا انها منذ الازل تعمل مع الآلهة العجائب ولم تظهر للبشر الاّ بعض الظهور. وسمّوها البغرة وسمّوا النفس النور وجعلوا العقل البشري ابنها. واستمرّوا على ذلك حتى قوي فيهم العقل على الوهم فجعلوا يشرّحون بفرنهم هذه ادقّ التشريح. وذهب كثيرون من علماء اللاهوت قديمًا وحديثًا الى ان الانسان لُقّن الكلام تلقينًا. وقد ورد ان يونوميوس اتّهم باسيليوس بانكار العناية الالهية لقولهِ ان الله لم يخلق اسماء الاشياء بل الانسان استنبطها بقوة اودعها الله فيهِ. فردّ غريغوريوس اسقف نياسّا تهمة يونوميوس بان الله اعطى الانسان قواهُ فلا يلزم من ذلك ان يكون الله عاملاً لكل ما يعمله الانسان كما اذا بنى الانسان بيتًا فان الله اعطاهُ القوة لبناء البيت ولكنهُ ليس هو الباني بل الانسان وكذلك استنباط الالفاظ فانهُ يعزى الى الانسان والله واهب القوة المستنبطة

ومثل ذلك يدفع العلماء اليوم قول القائلين بان اللغة خُلقت ولُقّنت للانسان ويزيدون ان لكل لغة من اللغات اصولاً قليلة تتفرّع منها كل مفرداتها فروعًا على فروع بموجب احكام مقرّرة تشهد ان اللغات نمت واتّسعت بممارسة الانسان لها على طول الايام[2]. ومهما يكن من قول القائلين بان اللغة منزلة فانهُ لا يحل الاّ بعض المسألة التي نحن بصددها اذ المتحصل منهُ ان الانسان تعلّم

(١) تجد كلامًا عن اصل التاريخ وجه ٦٩ من هذا الجزء. وعن اصل الكتابة وجه ١٨٥ من السنة الرابعة

(٢) ان البحث عن تفرّع اللغات وشرائع نموها وتغيرها يتعلق بعلم الفيلولوجيا وهو علم حديث الوضع اخص مواضيعهِ تحليل اللغات لمعرفة اصولها

الالفاظ تعلُّمًا والمطلوب ان يُعرَف كيف حصلت تلك الالفاظ فان كانت قد خُلِقَت فكيف خُلِقَت

ذهب فلاسفة القرن الثامن عشر[1] وغيرهم ان الانسان خُلِقَ اعتد اللسان يعبّر عن افكاره باشارات يده وحركات وجهه وسائر اعضاء جسده فلما كثرت عليه الافكار ضاق ذرعًا عن تأديتها الى ذهن رفيقه بالاشارات والحركات فانحلّ عقد لسانه وجعل يفصح عن ضمائره بلفظٍ يستنبطه ويقع الاتفاق على استعماله. الاّ انهم اختلفوا في زمان الالفاظ المستنبطة فقال بعضهم استُنبِط الفعل اولاً لان الحاجة اليه امسّ اذ اسماء الذوات يسهل افهامها بالاشارات او بالتشبّه بها واما الافعال فتدلّ على معانٍ لا تفهم بالاشارة ولذلك كان الناس اذا رأوا الذئب قادمًا يشيرون اليه ويصرخون "جاء" تحذيرًا من شره وقال آخرون استُنبِط الاسم اولاً لسهولة ادراك الافعال المسندة اليه بعد ادراكه فكان الناس اذا رأوا الذئب قادمًا يصرخون "الذئب الذئب" فيراهُ السامع ويعرف قدومه. فسواء استُنبِط الفعل قبل الاسم او الاسم قبل الفعل فنحن لا نرى كيف جاز على اولئك الفلاسفة ان اليشر استنبطوا الالفاظ قديمًا واتفقوا على استعمالها اتفاقًا وهم لا يقدرون ان يكلّم احدهم الآخر ليتّفقا دواعي الاتفاق او الاختلاف

اما الآن فقد نهج العلماء لحل هذه المسألة منهجًا آخر وهو مقابلة لغات البشر بعضها ببعض وردّها كلها الى اصول قليلة فوجدوا ان اللغة العبرانية مثلاً تشتق كلها من نحو ٥٠٠ اصل على ما يقولهُ العلاّمة رينان وان اللغة السنسكريتية لا يزيد عدد الاصول التي تشتق منها عن ذلك على ما يظنّهُ العلاّمة مَكْس مُلَر وان اللغة الصينيّة تألّف كل مفرداتها من نحو ٤٥٠ اصلاً حال كون قواميسهم تحتوي ما بين اربعين الف كلمة وخمسين الفًا على ما يُستخرَج من كتابة العلاّمة ستانِسْلاَس جُوليان. ثم قالوا ان كانت لغات البشر مشتقة من اصول لا يزيد عددها عن بضع المئين فلم يبعد علينا الاّ كشف الطريقة التي توصل بها الانسان الى النطق بتلك الاصول لمعرفة اصل اللغات. وذهبوا في تعليل ذلك ثلاثة مذاهب

قال اصحاب المذهب الاوّل قول فلاسفة القرن الثامن عشر وهو ان الانسان كان يعبّر عمّا في ضميره بالاشارات والحركات حتى تكاثرت افكارهُ ولم تعد الاشارات والحركات تكفي للتعبير عنها. فجعل يحكي الاصوات التي يسمعها فكان اذا اراد ان يشير الى الكلب حكى صوت نباحه فقال بَوْ وَوْ مثلاً واذا اراد ان يشير الى الغراب قال غاق او الى الظبية ماء او الى وقع الحجارة طق الى غير ذلك. ولما وجد حكاية الاصوات هذه تفي بالمقصود اعتمد عليها فحصلت منها اصول اللغة ثم طرأ عليها التركيب والنحت والحذف والتغيير وما شاكل فصارت سائر الفاظ اللغة كذلك للتعبير عن كل خاطر يخطر في النفس

وقال اصحاب المذهب الثاني[2]. لم نذهب مذهب حكاية الاصوات ونحط من درجة الانسان فنجعله يحكي اصوات الوحوش ويلقن دندنة الحشرات كانهُ ليس لهُ اصوات يعبّر بها عن فرحهِ وترحهِ.

(١) مثل لك وادم سميث ودوكلد ستيورت (٢) مثل كندلاك

لم ينطق الانسان بحكاية اصوات ما حوله بل باصواته الطبيعية التي تدل على حالاته كالعويل عند الويل والضحك عند الفرح والتنهّد عند الغم وقس على ذلك سائر الاصوات الطبيعية . فهذه كانت الاصول ومنها تفرّعت سائر مفردات اللغة

اما اصحاب المذهب الثالث فاحدث عهداً ممّن سواهم واشهرهم العلّامتان مَكس ملّر وربنان . قال مكس ملّر ما ملخصهُ : لا ينكر ان اللغة قد يمكن ان يكون اصلها حكاية الاصوات لامكان التعبير عن الافكار بهذه الحكاية فقد رُوي ان انكليزيًّا اراد تناول الطعام بالصين فقدموا له لحمًا اشتبه باصلهِ وكان جاهلاً للسان اهل الصين فقال لهم "كوك كوك" فاجابوهُ على الفور بَوْ وَو فعرف انهُ لحم كلب لا لحم وزكا لوقيل له ذلك بالانكليزية ولكنّ هذه الاصوات ليست بلغةٍ ولا تعلم ان لغةً من اللغات مشتقة منها . ولو كانت اللغات مشتقة منها لكانت الحيوانات اوّل ما يحيّى بها ولكن اين "بَوْ وَو" من لفظ "الكلب" و"نَوْنَو" من لفظ الهرّ و"غاق" من لفظ "الغراب" واين اصوات اكثر الحيوانات من اسمائها . نعم ان بعض الحيوانات سمّاة باصواتها ولكنها كالازهار المصطنعة لا اصل لها . ولا فرعَ يشتقُّ منها بخلاف سائر الاسماء التي ترُدُّ الى اصولها بتجريدها عن مزيداتها وتشتق منها الاشتقاقات العديدة . وايضًا فاننا بزيادة تحليل الالفاظ وتجريد الاصول يقلُّ معنا عدد هذه الاصوات الحكية حتى لا يبقى ريب في ان الاصول ليست منها

هذا من قبيل حكاية الاصوات وهو المعروف في اصطلاح هذا النوع بالأُونُوماتُوبيًّا واما الذين يذهبون ان الاصول مصدرها اصوات تأوُّه الانسان وتنهُّدهِ وعويلهِ وما اشبه فيعترض عليهم كما اعترض على اصحاب المذهب الاوّل بانهُ ممكن ولكن لا لغة من اللغات الموجودة مشتقة منها ولا سيما لانها تنتهي عندما يبتدئ الانسان في الكلام . قال هُورن تُك لا تقوم اللغة الّا عند سقوط الاصوات الطبيعية . ألا ترى ان الانسان لا يستعمل هذه الاصوات الّا اذا عرض له ما يهيجهُ فيقلهُ عن طبعهِ وينسيهِ الالفاظ برهةً او اذا خاف من فوات الفرصة اه . ولو كان اصل الكلام الاصوات الطبيعية لكان الالم يسمّى بآخ وليس بالالم . والضحك بهَهَ وليس بالضحك والموجع بآه وليس بالتوجّع ولكن الفرق بين هذه وتلك كالفرق ما بين الثريّا والثرى وليست هذه الاصوات اقرب الى الكلام من الاشارات والحركات فكما ان هذه لا تعدُّ لغةً فتلك كذلك

وزِد على ما تقدّم انهُ لو كان اصل اللغة حكاية الاصوات او الاصوات الطبيعية على ما في المذهبين المتقدمين لكان من الغريب ان الحيوانات البكم لا تتكلّم وفيها ما يستطيع ان يحكي كلام الناس كالببغاء وغيرهِ وما لهُ اصوات كثيرة طبيعية تدلُّ على فرحهِ وحزنهِ وخوفهِ وامنهِ كما للانسان . ولو كان اصل اللغة ما تقدّم ايضًا لكانت الالفاظ وُضِعَت اولاً للصور الجزئية التي ترسم في الذهن نقلاً عن المحسوسات ثم

أُطلقت على الصور الكلية تدريجًا فان من سمّى الكلب بَوْ وَو مثلاً انما سمّى كذلك كلبًا معيّنًا اولاً فكان لفظ بَوْ وَو مقصورًا على ذلك الجزئي ثم اطلق بالتدريج على كل كلبٍ . والصحيح ان الانسان وضع الالفاظ اولاً للدلالة على الصور الكلية فانّا اذا حللنا الفاظ اللغة وردّدناها الى اصولها وجدنا انها وُضعت اولاً للدلالة على صفةٍ يختصّ بها ذلك الشيء او على فعلٍ من افعاله فالكهف مثلاً في اللغات الآرية ردوهُ الى اصلهِ فوجدوهُ مشتقًا من معنى الثَّقب والتغطية والنهر من معنى الجري . فهاتان الصورتان كليتان عامّتان خُصّصتا اولاً بجزئي ثم اطلقتا على الكلي تدريجًا

هذا وفي اعتقادي ان الحيوان الابكم لا يقدر على التصورات الكلية وانما يقدر الانسان على ذلك من بين سائر الحيوانات ولذلك لا يفتكر الاّ الانسان ولا ينطق الاّ هو فالفكر والنطق لا يفترقان . ان الكلام بلا فكر اصوات فارغة والفكر بلا كلام لغو فما الفكر الاّ الكلام المخفض وما الكلام الاّ الفكر المرتفع وما الكلمة الاّ الفكر المتجسد . انتهى ملخصًا عن مكس ملر

والمذهب الثالث هو مذهب مكس مُلّر المذكور وهو ان الانسان نطق اولاً باصول الالفاظ بقوة كانت مغروسة في جبلتهِ ثم ذوت غضاضتها بقلة الاستعمال وضعف فعلها بطول الاهمال حتى تعطلت فيهِ وبطلت . وهاك مذهبهُ ملخصًا : اذا قُرِع الذهب رنّ غير رنّة الحديد واذا قُرِع الخشب صات غير صوت الخزف وكذلك الانسان اكمل المخلوقات الطبيعية فانهُ لم يخلق مقصورًا على حكاية اصوات ما حولهُ للاشارة اليهِ او على اصوات طبيعية فيهِ للاشارة الى حالات نفسهِ كالحيوان الاعجم بل أُودعت فيهِ قوة من شانها التعبير عمّا في ضميرهِ بكلمات ملفوظة . فكان الفكر اول ما يجول في دماغهِ كانهُ يقرع تلك القوة فتصوت بالفاظ يفهم الفكر منها وهذه الالفاظ هي اصول اللغة وقد طرأت عليها عوارض التغيير والتركيب حتى تالفت منها مفردات اللغة . ولمّا تمّ استنباط الاصول ولم يبقَ للقوة المذكورة متدوحة للعمل ضعفت كما يضعف السمع او البصر او غيرهما بقلة الاستعمال حتى تعطلت وبطلت من البشر

وردّ هوتني العلاّمة الاميركي الشهير على العلاّمة مَكس مُلّر بانهُ يلزم من ذلك ان يكون الانسان قد نطق من تلقاء القوة التي كانت فيهِ وان الباعث على نطقهِ لم يكن معاشرة ابناء جنسهِ والواقع خلافهُ . وان النطق والفكر متلازمان والحال ان الفكر قد يكون بدون النطق . وان القوة التي يزعم وجودها يقتضي ان لا تبطل من الناس لو صحّ زعمهُ اذ لا تزال الافكار المبتكرة والخواطر الجديدة تخطر على اذهانهم كما كانت ولكنها لا تدبر السنتهم في افواههم الآن للتلفظ بالفاظ مبتكرة تدلّ عليها فلا دليل على انها كانت قبلاً . وبينهما محاورات ومناقشات لا محل لذكرها في هذه المقالة